أليس عمّا قليل يتحوّل لبنان إلى الكرمل ؟!

(أش ٢٩: ١٧)

الخوري نعمة اللّه الخوري

سنحاريب الملك : نقش على صخور نهر الكلب (لبنان)

مقدمة

تعوّد الأنبياء على الاستعانة بالتصرّفات الرمزيّة والأمثال والتشبيهات ليعبّروا عن كلامهم الموحى بأسلوب مليء بالصور الحيّة، وذلك لكي يستطيع عامة الشعب أن يفهموا بسهولة كلام اللّه. استعان أشعيا بطبيعة لبنان ليقول : «أليس عمّا قليل يتحوّل لبنان الى الكرمل، والكرمل يُحسب وعراً؟» (أش ٢٩: ١٧). نجد في هذا القول النبوي مقارنة بين لبنان والكرمل اللّذين سيتغيّران بعد فترة وجيزة : سيتحوّل لبنان الى جنّة، في حين أن الكرمل سيتبدّل ويصبح مثل غابة. سنحاول أن نفهم السبب الذي دفع أشعيا إلى أن يستعين بتغيير واقع لبنان في سبيل تطبيق هذا التغيير على حياة مستمعيه.

أوّلاً : الحياة الاجتماعيّة في أيّام أشعيا

لا يمكننا أن نعزل الأقوال النبويّة عن المحيط الذي نشأت فيه، لأنّه من الضروري معرفة الظروف التي قيلت فيها هذه النبوءات. في أيّام أشعيا الذي تنبّأ بين الأعوام (٧٤٠-٧٠٠)، كان

المجتمع اليهودي يقسم الى فئتين: فئة الكتبة والحكماء والمستشارين الذين يعاونون الملك، وفئة الناس العاديّين الفقراء. اتكلت الطبقة الحاكمة على قوّة أشور لتُثبّت سلطتها في اليهوديّة، وأحياناً كانت هذه الطبقة تطلب العون من مصر؛ انتقد أشعيا هذه الطبقة الحاكمة، واعتبر أنّه لا يجب طلب العون من الأمم التي لا تعبد الإله الحقيقي، بل من الضروري أن يعير المسؤولون عن الشعب اهتمامهم الى مخطط اللّه الخلاصي، فهو الذي يُنجّي الشعب.

ثانياً : القول النبوي

«أليس عمّا قليل يتحوّل لبنان الى الكرمل؟» (٢٩:١٥-٢٢)

في بداية هذا القول النبوي (آ ١٥-١٦) يهاجم أشعيا بعض المسؤولين في الطبقة الحاكمة، في حين أنّ التفاؤل والأمل يسيطران على الآيات اللاحقة (آ ١٧-٢٢) التي تعد المساكين بتغيير واقع حياتهم. من الضروري أن نعالج كل قسم من هذه الآيات على حدة لنفهم مضمونها التعليمي.

١ - التَوَيُّلُ ضد المبتعدين عن اللّه (آ ١٥-١٦)

يتهجّم النبي على مجموعة صغيرة من المسؤولين وقادة الشعب الذين يجتمعون في غرفة مظلمة بعيداً عن أنظار الناس العاديّين. هؤلاء المسؤولين يخطّطون في الخفية، وهم يظنّون أنّهم يستطيعون أن يخفوا مخطّطاتهم عن اللّه (مز ٦٤:٣-٧؛ ٩٤:٧؛ ١٣٩:٧-١٢). يؤكّد أشعيا أنّ اللّه هو صانع كلّ شيء، فلا يستطيع المجبول أن يقول في جابله : لا عقل له (آ ١٦)؛ هذه المخطّطات ترتكز على مبدأ يعتبر أن اللّه لا يستطيع أن يُنقذ وينجّي، وهو لا يعلم خفايا الأمور. يحذّر أشعيا هذه المجموعة المتسلّطة بقوله : الويل لهم (آ ١٥)، ويؤكّد أنّ الوضع الحالي سيتغيّر؛ وهنا يستعين بطبيعة لبنان ليعبّر عن هذا التغيير في الآيات اللاحقة.

٢ - التفاؤل الموعود به للمختارين (آ ١٧-٢٢)

يعد أشعيا المساكين بتغيير واقع حياتهم في فترة وجيزة : الصمّ سيسمعون أقوال الكتاب، والعمي سيبصرون (آ ١٨)، البائسون والمساكين سيبتهجون (آ ١٩)، أمّا الأشرار والظالمون فسينقرضون (آ ٢٠). هذا التغيير في واقع حياة الناس يشرح معنى قول أشعيا النبوي : «أليس عمّا قليل يتحوّل لبنان الى الكرمل، والكرمل يُحسب وعراً؟» (آ ١٧)؛ ستتحوّل أرض لبنان الجبلية الوعرة الى أرض خصبة، وتصبح كالكرمل ذات البساتين الجميلة، أمّا الكرمل فسيتحوّل الى غابة. سيعود أشعيا الى الاستعانة بتغيير واقع الكرمل حين يقول : «قد أوتيت مجد لبنان وبهاء الكرمل والشارون» (أش ٣٥:٢). سيتحوّل لبنان الى الكرمل، أي الى نقيضه، وهذا يعني أنّ الأوضاع ستنقلب بين النبلاء والمتسلّطين من جهة، وبين المساكين والبائسين من جهة أخرى؛ هذا التغيير سيحدث في فترة وجيزة جدّاً، ولكنّ النبي لا يشير الى المهلة التي سيتحقق فيها هذا التغيير المُعلن.

يبدو أنّ أشعيا يشير في هذا المقطع الى ثلاثة أنواع من اليهود : اليهود الودعاء الفقراء والمساكين (آ ١٩)، واليهود العميان الذين لا يملكون المعرفة الحقيقيّة للكتب المقدّسة، ولكن يمكن إنارتهم (آ ١٨)، واليهود الظالمون الذين لا رجاء لتوبتهم. هناك صراع بين اليهود الأتقياء وبين اليهود الذين نسوا الشريعة : سيجد المؤمنون الأوفياء السعادة.

خاتمة

إنّ البؤس والشقاء اللذين يعاني منهما البائسون لم يدوما طويلاً، فاللّه يعد المختارين بتغيير واقع حياتهم؛ هذا يحضّرنا لنفهم قول يسوع لتلاميذه على الجبل : «طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض» (مت ٥:٥). هكذا استعان أشعيا بطبيعة لبنان الجليلة ليعبّر عن ازدهار شعب اللّه المسكين واختفاء الظالمين والأشرار.